في ظلال السيرة (3)

د. عبدالله بن محمد حفني

إمام وخطيب جامع هيا العساف بالجميزة

موقع جامع هيا العساف :

<http://www.hayaalassaf.com>

القناة الرسمية على اليوتيوب :

<https://www.youtube.com/channel/UCq3VB0Xi1Zorm3_Hje4JaCw>

 الأولى

عائشة تسأل ، ورسول الله يجيب ..

دخل رسول الله يوماً على عائشة < ..

وجلس إليها باسطاً حديث الزوج إلى وزجه

فسألته عائشة < سؤالاً عجيباً

يا رسول الله .. لقد كان يوم أحدٍ يوماً عسيراً

قتل فيه من قتل، وجرح من جرح، وقتل عمك حمزة> ، وأستشهد سبعون من أصحابك، وكسرت رباعيتك، وشجّ جبينك، وأصابك من الغمّ والهمّ ما أصابك .

فهَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟

ظنّت عائشة < أن يوم أحد الذي جاءت أحداثه الشديدة ، ومصابه الأليم في آيات متتابعة في سورة آل عمران هو أشدُّ يومٍ أتى على رسول حتى حكى الله مصابه في كتابه فقال:

ﭽ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ ﰒ ﰓ ﭼ آل عمران: ١٦٥

 ويستمع رسول الله لسؤال عائشة< ؛ ثم يقول: نعم .. نعم يا عائشة، ثم حدّثها عن أصعب يومٍ، وأشدِّ موقفٍ أتى على رسول الله في حياته الدعوية قَالَ: " لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ " أتدرون ما يوم العقبة؟

يوم العقبة هو اليوم الذي خرج فيه رسول الله إلى الطائف مبلغاً لرسالة الله بعد ما قضى رسول الله عشر سنوات في مكة .

وهو يبذل الغالي والنفيس في الدعوة إلى الله تعالى ، والسعي في إنقاذ البشرية من الغواية إلى الهداية

ومن الشرك إلى التوحيد، ويتحمل الأذى بشتى أنواعه، وهو يصابر مع قريش، ويتغاضى عن كفرهم وعنادهم، وهم يزدادون إعراضاً وكفراً حتى شعر رسول الله أن نفوس أهل مكة ليست مكاناً لرسالته، ولا محلاً لدعوته، فيا لطول ما صابرهم، ويا لطول ما دعاهم ، فسرح بصره إلى الطائف .

فعزم على الخروج إلى الطائف مشياً على الأقدام داعياً إلى الله تعالى ، يصحبه ربيبه زيد بن حارثة >

وسار رسول بين تلك الشعاب ، يقطع الفيافي والقفار في طريق وعرٍ وشاقٍ أملاً في أن يجد قلوباً تؤمن برسالته، ونفوساً تُسّلِم لدعوته،

حتى وصل إلى الطائف، وعرض رسالته السمحة، ودينه الخالد، ودعا إلى الله تعالى بكل ما أوتي من

روعة في البيان، وحسنٍ في الخطاب ، وقراءةٍ للقرآن

وبدأ بزعماء القبائل هناك .

وبعدما عرض تجارته الرابحة ، ورسالته المنجية

وقرع أسماعهم بكلام الله تعالى ؛

ولكنهم ضلوا و أضلوا، و ردوا على رسول بأقبح عبارة ، وأسوأ إشارة ، وأبشع لفظ ، وكلامٍ ينبئ عن قلوب فاجرةٍ كافرة .

فأحدهم يقول: أُمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك.

والآخر يقول: أما وجد الله أحداً غيرك.

والثالث يقول: والله لا أكلمك أبدا، إن كنت رسولاً لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي أن أكلمك.

وكانت هذه الكلمات أليمة، والصدمة شديدة على رسول ، فالردود قاسية ، والاستهزاء والسخرية ظاهرة ، وظل رسول في الطائف صابراً على جفائهم وقسوتهم ، يدعو إلى الله تعالى ويغشى مجالسهم لعل القلوب أن تلين ، والنفوس أن تؤمن ، ولكن هيهات هيهات ،، فحالهم كما قال نوح # :

ﭽ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﭼ نوح: ٦

بل أغرو به الصبيان والسفهاء يلحقون برسول ويسيئون إليه ، ويرمونه بالحجارة حتى رجموا عراقيبه واختضبت نعلاه بالدماء وهو يمضي على قدميه فراراً من أذاهم النفسي والبدني

عندها أيقن أن أهل الطائف آنذاك قد تحجرت قلوبهم ، وأصرّوا ، واستكبروا استكباراً .

فلما عزم رسول الله أن يخرج من الطائف عائداً إلى مكة، مهموماً، مكلوماً، حزيناً وهو يتألم لحال هؤلاء المعارضين، ويضيق صدره بما يقولون، رفع بصره إلى السماء بهتافٍ صادق، ودعاءٍ خاشع يناجي ربه الذي أرسله وقال له:

ﭽ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﭼ الأنعام: 33

وقال سبحانه مسلياً له:ﭽ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﭼ الحجر: ٩٨

 فدعا بهذه الدعوات التي تكشف عن ألمه وأمله «اللَّهُمَّ إِلَيْك أَشْكُو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي، إِلَى بِعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي، أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ !

إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِي، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ أَوْ تُحِلَّ عَلَيَّ سَخَطَكَ، لَك العتبى حَتَّى ترْضى، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ ".

الله أكبر ..

هتف خليل الله بهذه الدعوات التي تنسكب لها العبرات ، وتتصدع لها الجبال الراسيات.

دعا بها ثم خرج من الطائف مكروباً، تتراءى له مكة وأهلها، ينظر إلى فرحهم بهذا الرد الطائفي، وهجوم رؤساء ثقيفٍ الثلاثي، ينظر إلى سخريتهم بطرد أهل الطائف لرسالته وإعراضهم عن دعوته بعدما عادوه وأخرجوه .

يا له من موقف تكاد السماوات يتفطرن منه، وتنشق الأرض، وتخر الجبال هدّا، عاد رسول الله من الطائف، وهو في حالة من الاستغراق والفكر، والهمّ، والكرب النفسي الشديد، فلم يفق من هول ما رأى وسمع ، وهو يمشي في تلك الشعاب الموحشة حتى وصل إلى قرن الثعالب وحق له أن يكرب ويحزن، ويتألم لما نزل به وفجأة ورسول الله في هذا الضيق والهم الذي نزل به من صنيع أهل الطائف، وشماتة أهل مكة، وإذا بالكون يتحرك، والسماء تنصدع، والملائكة بأمر الله تتنزل، ورسول الوحي جبريل # يناديه قال : َفرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فماذا كان في ذاك النداء؟

وماذا كان الرد الإلهي لدعائه

«اللَّهُمَّ إِلَيْك أَشْكُو ضعف قوتي وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ»

لقد جاء المدد الإلهي ، والجواب الرباني

جاء المدد من الله الذي أرسله ووعده بالنصر والتمكين ﭽ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﭼ الروم: ٤٧

وإذا برسول الوحي جبرائيل # يقول: إن الله تعالى

قَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ:

يَامُحَمَّدُ، فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ،

إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟

أنت مكروب من أهل مكة والطائف فإن شئت

يا محمد دككت عليهم جبالها وشعابها، ودفنتهم تحت أحجارها فلن تسمع لهم بعد اليوم ركزاً، هذا مدد الله إليك يا محمد ، وهذا جنده بين يديك فـمُره بما شئت

فيا ترى بماذا يجيب رسول الله بهذا العرض السماوي ؟

وما هو الجواب لنبيٍ مهمومٍ مكروبٍ مغموم، آذاه قومه وطردوه، وأخرجوه، ونكلوا بأصحابه، وكذبوا دعوته ورسالته، إنها الفرصة الكافية السانـحة لمقام التشفّي، والانتقام من زعماء الكفر آنذاك .

لكن نبيك صاحب قلبٍ رؤوفٍ رحيم

نبينا جاء يأخذ بـحجز الناس من عذاب الله

فقال : لا .. لا تُدك مكة على أهلها، ولا يُقتل هؤلاء الشامتون المكذبون، " بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا" الله أكبر ..

الأمل موجود، والرجاء في الله معقود

بأبي وأمي أنت يا خير الورى

وصلاةُ ربي والسلامُ معطرا

يا خاتمَ الرسل الكرام محمدٌ

بالوحي والقرآن كنتَ مطهرا

لك يا رسول الله صدقُ محبةٍ

وبفيضها شهِد اللسانُ وعبّرا

لك يا رسول الله منا نصرةٌ

بالفعل والأقوال عما يُفترى

نفديك بالأرواح وهي رخيصةٌ

من دون عِرضك بذلها والمشترى

للشر شِرذمةٌ تطاول رسمُها

لبستْ بثوب الحقد لوناً أحمرا

تبّت يداً غُلَّتْ بِشرّ رسومِها

وفعالِها فغدت يميناً أبترا

الدينُ محفوظٌ وسنةُ أحمدٍ

والمسلمون يدٌ تواجِه ما جرى

الرحمةُ المهداةُ جاء مبشِّرا

ولأفضلِ كل الديانات قام فأنذرا

ولأكرمِ الأخلاق جاء مُتمِّماً

يدعو لأحسنِها ويمحو المنكرا

صلى عليه اللهُ في ملكوته

ما قام عبدٌ في الصلاة وكبّرا

صلى عليه اللهُ في ملكوته

ما عاقب الليلُ النهارَ وأدبرا

صلى عليه اللهُ في ملكوته

ما دارت الأفلاكُ أو نجمٌ سرى

وختامُها عاد الكلامُ بما بدا

بأبي وأمي أنت يا خيرَ الورى

وعاد يغالب همّه وحزنه حتى إذا أشرف على مكة قَالَ لَهُ زَيْدُ > : كَيْفَ تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ مكة وَقَدْ أَخْرَجُوكَ؟ يَعْنِي قُرَيْشًا. قال: يَا زيد، إِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لِمَا تَرَى فَرَجًا وَمَخْرَجًا، وَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرٌ دِينَهُ، وَمُظْهِرٌ نبيه ثم عاد إلى مكة، فأرسل رجلا من خزاعة إلى المطعم بن عدي: أدخل في جوارك؟

 فقال: نعم، ودعا بنيه وقومه فقالوا ألبسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت، فإني قد أجرت محمدا، فدخل رسول الله حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عدي على راحلته: يا معشر قريش، إني قد أجرت محمد فلا يهيجه منكم أحد.

ودخل رسول الله آمناً مطمئناً

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم ..

 الثانية

وبعدما تعاقبت السنون ..

ومضى الزمان وذهبت الغموم والأحزان ..

وإذا بالذين كانوا يشمتون برسول الله هلك منهم من هلك ، ونجا منهم من نجا، وأسلم من أسلم، ويعود رسول الله في السنة العاشرة في حـجة الوداع، ويقف خطيباً في أرض عرفات وأكثر من مائة ألف صحابي يحيطون به مد بصره كلهم يقولون:

أشهد ان لا إلا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

وبعد حجة الوداع يلحق رسول الله بالرفيق الأعلى.

وتجيءُ معركةٌ من أعظم معارك الإسلام، إنها معركة اليرموك وقتال الروم , وبعد قتال عنيف، ومعركة خالدة، يكتب في ديوان الشهداء من تلك الكوكبة المؤمنة ثلةٌ من الأبطال .. أتدرون من هم ؟

أتدرون من هم الشهداء الذين طارت أرواحهم الطاهرة إلى جنات عدنٍ في معركة اليرموك؟

أتدرون من هم الشهداء الذين قدموا أرواحهم، وسفكوا دمائهم ومزّقو أشلائهم فداءً لهذا الدين ، وابتغاءً لمرضاة ربّ العالمين.

عكرمة .. عكرمة ابن من؟ عكرمة بن أبي جهل ..

الله أكبر ..

وخالد .. خالد ابن من؟ خالد بن الوليد بن المغيرة ..

فما لحق رسول الله بربه، حتى رأى أبناء ألدّ أعدائه يفدونه بأرواحهم، ودمائهم، ويقولون بلسان حالهم ومقالهم: خذ من دمنا اليوم حتى ترضى

ﭽ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖﯗ ﭼ الفتح: ٢٧

يا كرام إن نعمة الإيمان والهداية، والعزة بهذا الدين وصلت بعدما بذل نبينا في سبيل إخراجنا من الظلمة والنور الغالي والنفيس.

انتهت الخطبة